الأردن وفلسطين عند الجغرافيين والرَّحَّالة العرب *

(المقدسي وابن جبير وابن بطوطة)

للأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة

كانت الشام منذ العصر الجاهلي تتألف من مناطق إدارية هي : فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين (حلب) ، واستمرت هذه التقسيمات الإدارية في العصور الإسلامية المختلفة ، مع تحويرات طفيفة كانت تقتضيها الظروف السياسية الداخلية والخارجية . وإن أهم ما يميز هذا الوضع الجغرافي والسياسي ، على مدى القرون الطويلة ، – منذ ما قبل الإسلام وفي العهود الإسلامية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م ، وسقوط الخلافة العثمانية– ظاهرتان أساسيتان : فالظاهرة الأولى تشير إلى أن " أجناد الشام أو " كوره " أو أقسامه " ، كما كانت تسمى في مختلف العهود كانت تمتد جغرافيًّا من البحر الشامي (الرومي) غربًا إلى شمال الجزيرة العربية والفرات شرقًا .

وأما الظاهرة الثانية فتتمثل بأن إقليم الشام ، سواءً أأطلق عليها " سورية " في العهد البيزنطي أم الشام أم إقليم الشام أم بلاد الشام في العهود الإسلامية المختلفة ، كانت وحدة إدارية ، تشكل إحدى ولايات الدولة الإسلامية .

وقد أولى مجمعنا العتيد بالقاهرة ، الأدب الجغرافي العربي اهتمامه ، فجعله المحور الرئيسي لبحوثه في مؤتمرين متتاليين. وكان البحث في إقليم الشام يراودني منذ العام الفائت ، لأسباب كثيرة ، كان منها النوايا العدوانية الأجنبية لتغيير مفاهيمه الجغرافية التراثية التي استمرت أكثر من أربعة عشر قرنًا . وقد اخترت البحث عن جندَي " فلسطين " و" الأردن " ، لما تتعرض له بعض أجزاء هذه البلاد في الوقت الحاضر ، لتغيير هويتها ، وطمس معالمها العربية والإسلامية وتهويدها . وقد

* ألقى هذا البحث في الجلسة الرابعة من جلسات المؤتمر صباح يوم الأربعاء غرة ذي القعدة سنة ١٤١٦هـ الموافق ٢٠ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٦م .

اخترت أن أعرض هذا الموضوع عند جغرافي من أبناء القدس معروف بابن البناء المقدسي البشاري، وعند رحالة أندلسي قد زار الشام في أثناء الحروب الصليبية ، وهو المعروف بابن جبير ، وأن أتوقف عند رحالة مغربي طنجي عرف باسم ابن بطوطة زار الشام بعد هزيمة الصليبيين وخروجهم نهائيا من مصر والشام .

وربما كان من المفيد أن نلقي ضوءا على المفهوم الجغرافي لبلاد فلسطين والأردن من إقليم الشام في نهاية العهد البيزنطي وبداية صدر الإسلام ، وذلك من خلال مسار الفتوحات الإسلامية ومسالك جيوش الفتح .

قال أبو جعفر (الطبري) : ثم ضرب [أي الرسول صلى الله عليه وسلم] في المحرم من سنة إحدى عشرة على الناس بعثا إلى الشام ، وأمر عليهم مولاه وابن مولاه أسامة بن زيد بن حارثة ، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين (١) ولما قفل أبو بكر من الحج سنة اثنتي عشرة جهز الجيوش إلى الشام ، فبعث عمرو بن العاص قبل فلسطين،فأخذ طريق المعرقة على أيلة(٢)، وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وهو أحد الغوث وأمرهم أن يسلكوا التبوكية على البلقاء من علياء الشام(٣) .

وكان أبو بكر قد سمى لكل أمير من أمراء الشام كورة ، فسمى لأبي عبيدة بن عبد الله بن الجراح حمص ، وليزيد بن أبي سفيان دمشق ، ولشرحبيل بن حسنة الأردن ، ولعمرو بن العاص ولعلقمة بن مجزز فلسطين(٤).

ومن الواضح أن أيلة والبلقاء والداروم من أرض فلسطين ، وأن البلقاء من علياء الشام ، والطريق إليها من التبوكية .

ويحدثنا الطبري قائلا : فنزل يزيد البلقاء ، ونزل شرحبيل الأردن ويقال بصرى ونزل أبو عبيدة الجابية ، ثم أمدهم بعمرو بن العاص فنزل بغمر العربات(٥) قالوا : فأول صلح كان

(١) انظر : الطبري ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .

(٢) أيلة هي مدينة العقبة في الوقت الحاضر وتقع على خليج العقبة .

(٣) انظر : الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٨٧ .

(٤) انظر : الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٩٤.

(٥) غمر العربات هو وادي عربة في الوقت الحاضر .

بالشام صلح مآب(١)،وهـــي فســـطاط وليس بمدينة ، مرَّ أبو عبيدة بهم في طريقه، وهي قرية من البلقاء ، فقاتلوه ، ثم سألوه الصلح فصالحهم . واجتمع الروم جميعًـــا بالعَرَبة من أرض فلسطين .

قالوا : فأول حرب كانت بالشام بعد سريَّة أسامة بالعَرَبة ، ثم أتـــوا الدَّاثنـــة ويقال الداثن(٢) .

ويحدثنا الطبري عن مسار الفتوحـلت الإسلامية بالشام قائلاً : ثم سار خالد بْـن الوليد .. حتى أغار على غَسَّـــان بمَـــرْج راهط ، ثم سار حتى نـــزل علـــى قنـــاة بُصْرى، وعليها أبوعبيدة بـــن الجـــراح ، وشُرحبيل بن حَسَنة ويزيد بن أبي سفيان، فرابطوها حتى صالحت بُصْـــرى علـــى الجِزْية، وفتحها الله على المسلمين فكانت أوَّل مدينة من مدائن الشـــام فتحـــت في خلافة أبي بكر .

ثم ساروا جميعًا إلى فلســـطين مـــددًا لعمرو بن العاص ، وعمرو مقيم بالعَرَبات من غور فلسطين ، وسمعت الروم بهـــم ، فانكشفوا من جلق إلى أجنادين وأجنادين بلد بين الرملة وبيت جبرين مـن أرض فلسطين وكانت وقعة أجنـــادين في سنة ثلاث عشرة لليلتين بقيتـــا مـــن جُمادى الأولى (٣) .

ويواصل الطبري الحديث عن مسار هـــذه الفتوحات ، فيقول : لَمَّا فرغ المســـلمون من أجنادين ساروا إلى فِحْل مـــن أرض الأردن حتى نزلت الروم ببيسان بثغـــوا أنهارها ، وهي أرض ســـبخة ، فكـــانت وحلاً ، ونزلوا فحـــلاً ، وبيســـان بـــين فلسطين والأردن(٤) ودخل المســـلمون فحْلاً فكانت في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة على ستة أشهر من خلافة عمر(٥).

ويحدثنا البلاذري عن ســـبب هـــذه الوقعة أن هرقل لما ســـار إلى أنطاكيـــة استنفر الروم وأهل الجزيرة وابعث عليـــهم رجلاً من خاصته وثقاته في نفسهِ فلقـــوا المسلمين بفِحْل من الأردن، فقاتلوهم أشد قتال وأبرحه حتى أظْهرهم الله عليـــهم .. وتحصن أهل " فِحل " فحصرهم المسلمون حتى سألوا الأمان على أداء الجزية عـــن رؤوسهم والخراج عن أرضهم (٦) .

---

(١) مآب وهي في الوقت الحاضر جبال موآب ومركزها الكرك.

(٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٠٦ .

(٣) انظر : الطبري ، ج٣ ، ص ٤١٧ ٤١٨ .

(٤) انظر الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٣٤ .

(٥) انظر : الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٣٥ .

(٦) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٢٢ .

وفتح شُرحبيل بن حسنة طبريَّة صلحًا بعد حصار أيام وفتح أيضًا جميع مدن الأردن وحصونهم على هذا الصلح فتحًا يسيرًا بغير قتال ، ففتح بيسان ، وفتح سوسية ، وفتح أفيق ، وجرش وبيت راس، وقَدَس ، والجولان ، وغلب على سواد الأردن وفتح شرحبيل عكا وصور وصفورية وفى سنة تسع وأربعين خرجت الروم إلى السواحل ، وكانت الصناعة بمصر فقط فأمر معاوية ابن أبي سفيان بجمع الصنَّاع والنجارين ، فجمعوا ورتبهم في السواحل ، وكانت الصناعة في الأردن بعكا

وقال الواقدي : لم تزل المراكب بعكا حتى ولي بنو مروان فنقلوها إلى صور فهي بصور إلى اليوم ، وأمر أمير المؤمنين المتوكل على الله في سنة سبعٍ وأربعين ومئتين بترتيب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة(١).

ويحدثنا الطبري في أحداث سنة خمس عشرة فيقول : " لما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص من فِحْل ، نزل عمرو وشرحبيل على بيسان،فافتتحاها، وصالحته الأردن واجتمع عسكر الروم بأجنادين وبيسان وغَزَّة .وسار معاوية في جنده على أهل قيْساريَّة (٢).

ويواصل الطبري الحديث عن مسار هذه الفتوحات ، فيقول : ولما توجه علقمة إلى غَزَّة ، وتوجه معاوية إلى قَيْساريَّة ، صمد عمرو بن العاص إلى الأرطبون ، ومرَّ بإزائه ، وخرج معه شرحبيل بن حسنة على مقدمته ، واستخلف على عمل الأردن أبا الأعور وكان الأرطبون قد وضع بالرَّملة جندًا عظيمًا وبإيلياء جندًا عظيمًا ثم إن أرطبون انهزم في الناس فأوى إلى إيلياء (بيت المقدس)، ونزل عمرو أجنادين(٣).

ويحدثنا البلاذي عن أمر فلسطين فيقول : كانت أول وقعة واقعها المسلمون الروم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه أرض فلسطين ، وعلى الناس عمرو ابن العاص ، ثم إن عمرو بن العاص فتح غزة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه . ثم فتح بعد ذلك سبسطية ونابلس ثم فتح مدينة لد وأرضها ،ثم فتح يبنى وعمواس وبيت جبرين ، واتخذ بها ضيعة تدعى

(١) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٢٣ ١٢٥ .
(٢) انظر : الطبري ، ج ٣ ، ص ٦٠٣ ٦٠٤ .
(٣) انظر : الطبري ، ج٣ ، ص ٦٠٥ ٦٠٦ .

عجلان باسم مولى له ، وفتح يافا وفتح رفح وقدم عليه أبو عبيدة بعد أن فتح قِنّسرين ونواحيها وذلك في سنة ست عشرة وهو محاصر إيلياء ، وايلياء مدينة بيت المقدس ثم طلب أهل إيلياء من أبي عبيدة الأمان والفتح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج، والدخول فيما دخل فيه نظراؤهم على أن يكون المتولي للعقد لهم عمر بن الخطاب نفسه . فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك فقدم عمر فنزل الجابية من دمشق ثم صار إلياء ، فأنفذ صلح أهلها وكتب لهم به ، وكان فتح إيلياء (بيت المقدس)سنة سبع عشرة(١).

وقد عني الجغرافيون والرحالة العرب، منذ وقت مبكر بوصف الإقليم والمدن والمسالك والممالك وطبائع الناس وعاداتهم، وذلك لأغراض مختلفة ، وكان من أهمها مسالك الجيوش والبُرد والتجارة والحج، إلى جانب التعرف على عجائب البر والبحر. فوضعت المصنفات الجغرافية المهمة منذ القرن الثالث الهجري .

وننتقل إلى أحد مشاهير الجغرافيين العرب، الجغرافي الشامي المقدسي ، ويقال له البشّاري(٢)من أهل القرن الرابع الهجري.

يحدد المقدسي " إقليم الشام " على الوجه التالي :" ويحد إقليم الشام من تخوم مصر نحو الشمال إلى بلد الروم ، فيقع بين بحر الروم وبادية العرب ، وتتصل البادية وبعض الشام بجزيرة العرب . ويدور على الجزيرة بحر الصين إلى عبادان من أرض العراق إلى القلزم(٣) .

ويتحدث عن إقليم الشام فيقول : "إقليم الشام جليل الشأن ، ديار النبيين ، ومركز الصالحين ، ومعدن الأبدال(٤)، ومطلب الفضلا، به القبلة الأولى ، وموضع الحشر والمسرى ، والأرض المقدَّسة ، والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة ، ومهاجر إبراهيم وقبره ومولد المسيح ومهده ويعدد المقدسي الأماكن التي باركها الله سبحانه وتعالى بالشام ،

(١) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٤٤ .

(٢) محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي ، ويقال له البشاري شمس الدين أبو عبد الله . رحالة جغرافي ، ولد في القدس سنة ٣٣٦هـ وتعاطى التجارة طاف أكثر بلاد الإسلام ، وصنف كتابه " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " وتوفي نحو سنة ٣٨٠هـ . وانظر : الأعلام ، ج٦ ، ص٢٠٣ .

(٣) المقدسي ، ص ٦٢-٦٣ .

(٤) الأبدال : قوم من الصالحين بهم يقيم الله الأرض ، أربعون في الشام وثلاثون في سائر البلاد ، لا يموت منهم أحد إلا قام مكانه آخر ، فلذلك سُمُّوا أبدالا . انظر : اللسان ، مادة " بدل" .

ومشاهد الأنبياء(١).

ويتحدث عن مركز إقليم الشام الجغرافي ، وتجارته الزاهرة فيقول : " ثم البحر يمد على غربيّه . فالحمولات فيه إليه أبدًا ، وبحر الصين متصل بطرفه الأقصى ، له سهل وجبل وأغوار وأشياء ، والبادية على تخومه كالزقاق منه إلى تيما . وبه معادن الرخام وعقاقير كل دواء ، ويسار وتجار ولباقة وفقها ، وكتاب وصناع وأطباء(٢) ولكن المقدسي ، ابن الشام ، يلتفت إلى ما آل إليه الحاضر ، بعد أن عرض ما عرض من رفاه وازدهار فيقول : " إلا أنهم على خوفٍ من الروم وفي جلا، والأطراف قد خربت ، وأمر الثغور قد انقضى ، وليسوا كالأعاجم في العلم والدين والنهى ، بعض قد ارتد وبعض للجزية في أداء ، يقدمون طاعة المخلوق على طاعة رب السماء ، عامتهم جهَّال أو غوغا ، لا نهضة في جهاد ولا حميَّة على الأعداء(٣) وبعد أن يذكر المقدسي سبب تسمية الشام ، بهذا الاسم يحدد الشام ويحاور وجهات النظر المختلفة ، حوارًا نلمح من خلاله منهج المتكلمين وأهل المنطق ، يقول :" وأهل العراق يسمُّون كل ما كان وراء الفرات شاماً ، ولهذا أرسل محمد بن الحسن القول في دواوينه وليس وراء الفرات من الشام غير كورة قنسرين حسب والباقي بادية العرب، والشام من ورائها،وإنما أراد محمد التقريب والمتعارف بين الناس، كما يقال: لخراسان المشرق ، وإنما هو من ورائها وإنما الشام كل ما قابل اليمن ، وكان الحجاز بينهما . فإن قال قائل: ما تنكر أن يكون طرف البادية إلى حدود العراق من الشام ، ليصح ما قاله أهل العراق ، قيل : قد قسمنا الأقاليم ورسمنا الحدود ، فلا ينبغي لنا أن ندخل في إقليم من غيره . وأهل هذا العلم أن هذه الأرض المتنازع فيها أنها من جزيرة العرب ، ولو جعلها أحد من الشام لا مجازًا ، لكان لنا أن نقول له : حدود الشام التي رسمناها مُجمع عليها ، ومازدتم مختلف فيه ، وعلى من ادَّعى الزيادة الدليل(٤) .

وإلى جانب هذا الأسلوب في الحوار،

---

(١) انظر : المقدسي ، ص ١٥١ -١٥٢ .

(٢) المقدسي ، ص ١٥٢ .

(٣) المقدسي ، ص ١٥٢ .

(٤) المصدر نفسه .

يتميز المقدسي ، بالاعتماد على الحقائق الجغرافية في تقسيم الأقاليم ، غير آبه بما هو دارج عند عامة الناس . ويتحدث عن تقسيمات إقليم الشام فيقول :" وقد قسمنا هذا الإقليم ست كور ، أولها من قبل أقور قنسرين ، ثم حمص ، ثم دمشق ، ثم الأردن ، ثم فلسطين ، ثم الشراة(١) فأما قنسرين فقصبتها حلب ومن مدنها أنطاكية إسكندرونة حماة معرة النعمان وأما حمص فاسم القصبة أيضا، ومن مدنها تدمر اللاذقية ، جبلة أنطرسوس وأما دمشق فاسم القصبة أيضا ومدنها بانياس ، صيدا، بيروت أطرابلس ناحية البقاع ولد مشق ست رساتيق: الغوطة، حوران، البثنية، الجولان، البقاع، الحولة

ويحدثنا المقدسي عن الأردن فيقول: وأما الأردن فقصبتها طبرية ، ومن مدنها قدس ، صور ، عكا، اللجون ، كابل ، بيسان ، أذرعات

ومن الملاحظ أن المقدسي الشامي ، يجعل " أذرعات " من الأردن ثم يتحدث عن فلسطين ، فيقول : وأما فلسطين فقصبتها الرملة ، ومدنها بيت المقدس ، بيت جبريل ، غزة ، ميماس عسقلان ، يافه، أرسوف، قيسارية،نابلس أريحا . عمان(٢) . ومن الملاحظ أن المقدسي يجعل عمان جزءا من كورة فلسطين . ثم يتوقف عند الشراة التي جعلها كورة برأسها ، فيقول : " وأما الشراة فجعلنا قصبتها صغر ومدنها مآب ، معان ، تبوك ، أذرح ، ويلة ، مدين .. ".

ومما يلفت الانتباه قوله :" فجعلنا قصبتها " فقد تفرد المقدسي ، بجعل "صغر" قصبة الشراة وأضاف إليها تبوك ومدين وربما أن التقسيمات الجغرافية إلى أقاليم ، التي أشار إليها في حديثه عن حدود الشام ، هي التي دفعته إلى هذا التخطيط ، وليس ما تعارف الناس عليه أو ما كان موجودا في الواقع الإداري

ويحدثنا المقدسي عن طبرية فيقوك : "طبرية قصبة الأردن ، وبلد وادي كنعان، موضوعة بين الجبل والبحيرة فهي ضيقة كربة في الصيف مؤذية ، طولها نحو من

---

(١) ومن الملاحظ أن المقدسي يجعل " الشراة " كورة برأسها من كور الشام ، وهذا ما يعتمده الرأي القائل أن البلقاء وامتداها إلى الشراة وعملها أيلة ، تضاف إلى جند فلسطين في كثير من الفترات التاريخية ، وتضاف أحيانا أخرى إلى جند دمشق ، وأنها ليست جزءا جغرافيا من فلسطين .

(٢) انظر : المقدسي ، ص ١٥٤ ١٥٥ .

فرسخ بلا عرض ، والجامع في السوق كبير حسن قد فرش أرضه بالحصى على أساطين حجارة موصولة ".ثم يتحدث عن أهل طبرية وحياتهم الاجتماعية ... وعراة من شدة الحرّ ، ويمصون قصب السكر ، ويخوضون الوحل ... ثم يشير إلى الطريق الذي يصل طبرية بدمشق ، فيقول : "وأسفل البحيرة جسر عظيم عليه طريق دمشق ...والجبل مطلٌّ على البلد شاهق(١)

ويعرض المقدسي المدن التي تكون "كورة الأردن " ، فيصفها وصفًا جغرافيًا موجزًا ، ويتحدث عن حاصلاتها وثرواتها ويقدم معلومات قيمة عن السكان في كثير من الأحيان ... فيذكر من الأردن ، "قدس" وهي على حد قوله :" مدينة صغيرة على سفح جبل ، كثيرة الخير ، رستاقها جبل عاملة ، بها ثلاث عيون شربهم منها ، وحمَّامهم واحد تحت البلد ، والجامع في السوق ، فيه نخلة ، وهو بلدٌ حارٌّ، ولهم بحيرة(٢) على فرسخ تصب إلى بحيرة طبرية ، قد عمد إلى النهر فسُجر ببناء عجيب حتى يتبحر . إلى جنبها غابة حلفاء ، رفقهم منها ، أكثرهم ينسجون الحصر ويفتلون الحبال . وفي البحيرة أنواع من السمك منه البني حمل من واسط ، كثيرة الذمة وجبل عاملة ذو قرى نفيسة وأعناب وأثمار وزيتون وعيون ، المطر يسقي زروعهم ، يطلُّ على البحر ، ويتَّصل بجبل لبنان ...

ثم يتحدث المقدسي عن أذرعات ، فيقول :" مدينة قريبة من البادية ، رستاقُها جبل جرش يقابل جبل عاملة ، كثير القرى ، وجلت طبرية بهذين الجبلين ". ثم يتحدث عن "بيسان" فيقول: "بيسان على النهر كثيرة النخيل ، وأرزاز فلسطين والأردن منها ، غزيرة المياه رحبة ، إلا أن ماءها ثقيل ". ثم يتحدث عن " اللجُّون " بأنها مدينة على رأس حد فلسطين في الجبال ، بها ماء،رحبة نزيهة ". ثم يتحدث عن "كابُل" بأنها مدينة ساحلية بها مزارع الأقصاب ، وبها بطيخ السكر الفائق ، ثم يذكر "الفراذية" بأنها قرية كبيرة ، بها منبر الأعناب والكروم ، بها ماء غزير وموضع نزيه(٣).

ثم يتحدث عن "عكا" فيقول :"عكا مدينة حصينة على البحر ، كبيرة الجامع ،

(١) انظر : المقدسي ، ص ١٦١ .

(٢) وتسمى اليوم بحيرة الحولة ، وقد جفَّفها اليهود بعد احتلالهم لهذه المناطق سنة ١٩٤٨م .

(٣) انظر : المقدسي ، ص١٦١-١٦٢ . .

فيه غابة زيتون تقوم بسرجه وزيادة . ولم تكن على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون . وقد كان رأى صور ، ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها ، فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك المينا ، فجمع صُنَّاع الكورة وعرض عليهم ذلك ، فقيل لا يهتدي أحد إلى البناء في الماء في هذا الزمان ، ثم ذُكر له جدُّنا أبو بكر البناء ، وقيل إن كان عند أحد علم هذا فعنده ، فكتب إلى صاحبه على بيت المقدس ، حتى أنهضه إليه ، فلما صار إليه وذكر له ذلك ، قال : هذا أمر هين "، ثم يعرض المقدسي كيفية بناء جده ميناء عكا..(١).

ثم يذكر من كورة الأردن "الجش" ويصفها بأنها قرية قريبة من القصبة ، موضوعة بين أربعة من الرساتيق ، قريبة من البحر . ثم يتحدث عن "صور" فيقول : مدينة حصينة على البحر ، بل فيه يدخل إليها من باب واحد على جسر واحد ، قد أحاط بها وبين عكا وصور شبه خليج (٢).

ثم ينتقل المقدسي من الحديث عن "الأردن " إلى الحديث عن فلسطين ، ونحن نولي حديثه أهمية خاصة عن فلسطين بخاصة وعن الشام بعامة ، لأنه ابن القدس الشامي .. ويبدأ حديثه عن الرملة ، فيقول :"قصبة فلسطين ، بهية حسنة البناء ، خفيفة الماء مرية واسعة الفواكه ، جامعة الأضداد بين رساتيق جليلة ، ومدن سرية ، ومشاهد فاضلة ، وقرى نفيسة ، والتجارة بها مفيدة ، والمعايش حسنة ، ليس في الإسلام أبهى من جامعها ، ولا أحسن وأطيب من حواريها ، ولا أبرك من كورتها ، ولا ألذ من فواكهها ، موضوعة بن رساتيق زكية، ومدن محيطة ، ورباطات فاضلة ، ذات فنادق رشيقة ، وحمامات أنيقة ، وأطعمة نظيفة ، وإدامات كثيرة ، ومنازل فسيحة، ومساجد حسنة ، وشوارع واسعة ، وأمور جامعة . قد خطت في السهل وقربت من الجبل والبحر ، وجمعت التين والنخل ، وأنبتت الزروع على البغل ، وحوت الخيرات والفضل ، غير أنها في الشتاء جزيرة من الوحل ، في الصيف ذريرة من الرمل ، لا ماء يجري ولا خضر ولا طين جيد ولا ثلج . كثيرة البراغيث عميقة الآبار مالحة ، وماء المطر في جباب مغفلة ، فالفقير عطشان،والغريب حيران ،

(١) انظر : المقدسي ، ص ١٦٢-١٦٣ .

(٢) المصدر نفسه .

وفي الحمَّام ديوان ، ويدور في الـــدولاب خدَّام . وهي ميل راجح في ميل ، بنيـلهم حجارة منحوتة حسنة وطوب . الـــذي أعرف من دروبها :درب بئر العســـكر، درب مسجد عنّبة، درب بيت المقـــدس درب بيعلة، درب لُد ، درب يافـا، درب مصر ، درب داجُون. يتصل بها مدينـــة تسمى داجون ، فيها جـــامع ، وجـــامع القصبة في الأسواق ، أبهى وأرشق مـــن جامع دمشق ، يسمى الأبيض ، ليـــس في الإسلام أكبر من محرابه ، ولا بعد منـــبر بيت المقدس أحسن من منبره . وله منـارة بهية ، بناه هشام بن عبد الملك . وسمعـت عمي يقول: لما أراد بناءه ، قيل لـــه :إن للنصارى أعمدة رخام مدفونـــة تحـت الرمل، استعدوها لكنيسة بالعة . فقال لهم هشام بن عبد الملك :إمَّا أن تطوروهـــا ، وإمَّا أن تهدم كنيسة لُدَّ فنبني هذا الجـــامع على أعمدتها. فأظهروها . وهي غليظـــة طويلة حسنة . وأرض المغطى مفروشـــة بالرخام ، والصحن بالحجارة المؤلفـــة . وأبواب المغطَّى من الشربين والتنـــوب ، مداخله محفورة حسنة جدا(١).

وتأتي أهمية هذا الوصف ، أنه يصـدر عن جغرافي مشهور ، كـــانت معرفتـه الشخصية وملاحظاته أهـــم مصـادره ، فيسمى الدّروب التي يعرفها ، على حـــد تعبيره وينقل ما يرويه عـــن "عمـــه" ويفصل الحديث عن معيشـــة النـــاس ، ويدقق الوصف في بناء المســـجد ونـــوع أبوابه إلخ .

ثم ينتقل المقدسي للحديث عن "بيـت المقدس" ، مسقط رأسه ، ويفصل الحديث عنها ، وعن المسجد الأقصى والصخـــرة المشرفة(٢) . وكانت المعلومات الدقيقـــة التي أوردها المقدسي ، المصـــدر الـــذي استقى منه كل من كتب بعده عن "بيـــت المقدس "، لاسيما يـــاقوت الحمـــوي في كتابه معجم البلدان .

فبيت المقدس ، ليســـت في مدائـــن الكور أكبر منها ، وقصبات كثيرة أصغـــر منها لا شديدة البرد وليس حر ، وقـــلّ ما يقع بها ثلج ".وينهي حديثه عن بيت المقدس بالجرايات الدائمة ووجود طبَّـــاخ وخبَّاز وخدَّام ، مرتبين ، يقدمون العـــدس بالزيت لكل من حضر من الفقراء، ويدفع

(١) المقدسي ، ص ١٦٤-١٦٥ .

(٢) انظر : المقدسي ، ص ١٦٥-١٧٣ .

إلى الأغنياء إذا أخذوا . ويظن أكثر الناس أنه من قِرى إبراهيم . وإنَّما هو من وقْف تميم الدَّاري وغيره . والأفضل عندي التورُّع عنه"(١) . فهذه الجرايات تقدم من وقف تميم الداري . ويرى المقدسي الجغرافي الأديب الفقيه ، ترك هذه الجرايات للفقراء ، وأن يتورع عنه غير المحتاجين

ويواصل حديثه عما يحيط بقصبة بيت المقدس ، وأنه على فرسخ من حبرى جبل صغير مشرف على بُحيرة صُغر وموضع قريات لوط ، ثم مسجد بناه أبو بكر الصباحي ، فيه موضع مرقد إبراهيم عليه السلام ، ورقد غاص في القُف نحو ذراع . يقال :إن إبراهيم لمَّا رأى قَرَيات لوط في الهواء ، رَقَد ثَمَّ ، وقال : أشهد أن هذا هو الحقُّ اليقين .

ويتفرد المقدسي بتحديده القدس على الوجه التالي . فيقول :" وحدُّ القدس ما حول إلياء إلى أربعين ميلاً ، يدخل في ذلك القصبة ومدنها واثنا عشر ميلاً في البحر وصُغر ومآب ، وخمسة أميال من البادية ، ومن قبل القبلة إلى ماوراء الكسيفة وما يحاذيها ، ومن قبل الشمال تخوم نابلس . وهذه الأرض مباركة ، كما قال الله تعالى ، مُشجرة الجبال ، زريعة السهول من غير سقي ولا أنهار ، كما قال الرجلان لموسى بن عمران : وجدنا بلدا يفيض لبنًا وعسلا(٢) .

ويتابع المقدسي الحديث عن مدن فلسطين فيقول : وبيت جبريل مدينة سهلية جبلية ، رستاقها الداروم ، فيه مقاطع الرُّخام ، وميرة القصبة ، وخزانة الكورة ، بلد الغوال والرخاء ، ذات ضياع جليلة ، إلا أنَّها قد خفت . وهي كثيرة المخنثين

وغزة مدينة كبيرة على جادة مصر ، وطرف البادية ، وقرب البحر ، بها جامع حسن ، وفيها أيسر عمر بن الخطاب ، ومولد الشافعي وقبر هاشم بن عبد مناف.

وميماس على البحر حصينة صغيرة تنسب إلى غزة .

وعسقلان على البحر جليلة كثيرة المحارس والفواكه ، ومعدن الجُميز ، جامعها في البزّازين ، قد فرش بالرخام ، بهيَّة فاضلة ، طيبة حصينة ، قزُّها فائق

---

(١) انظر: المقدسي ، ص ١٧٣ .

(٢) المصدر نفسه .

وخيرها دافق ، والعيش بها رافق ، أسواق حسنة ، ومحارس(١) نفيسة ، إلا أن ميناها ردي،وماؤها عذيبي ودلمها مؤذٍ.

ويافه على البحر صغيرة ، إلا أنها خزانة فلسطين ، وفُرضة الرَّملة ، عليها حصن منيع بأبواب محدَّدة ، وباب البحر كله حديد ، والجامع مشرف على البحر نزه ، وميناها جيد .

وأرسوف ، أصغر من يافه ، حصينة عامرة بها منبر حسن ، بُني للرملة ثم كان صغيرًا فحمل إلى أرسوف .

وقيساريَّة : ليس على بحر الروم بلد أجل ولا أكثر خيرات منها ، تفور نعما ، وتتدفق خيرات ، طيبة الساحة ، حسنة الفواكه ، عليها حصن منيع ، وربض عامر قد أدير عليه الحصن ، شربهم من آبار وصهاريج ، ولها جامع حسن .

نابُلُس : في الجبال كثيرة الزيتون ، يسمُّونها دمشق الصُّغرى ، وهي في وادٍ قد ضغطها جبلان ، سوقها من الباب إلى الباب ، وآخر إلى نصف البلد ، والجامع وسطها ، مبلطة نظيفة ، لها نهر جارٍ ، بناؤهم حجارة، ولهم دواميس(٢) عجيبة.

وأريحا هي مدينة الجبَّارين ، وبها الباب الذي ذكره الله تعالى في"المائدة"(٣) وبها مزارع النيل والموز الكثير والنخيل . رستاقها الغور ، وزروعهم تسقى من العيون ، شديدة الحَرِّ ، معدن الحيَّات والعقارب ، أهلها سمر وسودان ، كثيرة البراغيث ، غير أن ماءها أخفُّ ماء في الإسلام ، كثيرة الموز والأرطاب والريحان.

وعمَّان : على سيف البادية ، ذات قرى ومزارع ، رستاقها البلقاء ، معدن الحبوب والأغنام ، بها عدة أنهار وأرحية يديرها الماء ، ولها جامع ظريف بطرف السوق ، مفسفس الصحن . وقد قلنا : إنه شبه مكَّة ، وقصر جالوت على جبل يطلُّ عليها ، وبها قبرُ أوريًّا عليه مسجد ، وملعب سليمان ، رخيصة الأسعار ، كثيرة الفواكه ، غير أن أهلها جُهَّال وإليها الطرق الصعبة .

والرَّقيم :قرية على فرسخ من عمَّان ، على تخوم البادية ، فيها مغارة لها بابان صغير وكبير وفي المغارة ثلاثة قبور. ثم يروي المقدسي قصة هذه القبور الثلاثة، في حديث مفصل ويواصل المقدسي حديثه

(١) البناء الأحرش : هو القديم العادي الذي أتى عليه الدهر . انظر لسان العرب ، مادة حرس .

(٢) الدواميس جمع دماس وهو الحمَّام . انظر : اللسان . مادة:دمس .

(٣) المائدة : ٢٥.

عن "فلسطين" فيقول: ولهذه الكورة قرى جليلة ذات منابر، أعمر وأجلُّ من أكثر مدن الجزيرة، وهي مذكورة غير أنه لمَّا لم يكن لها قوة المدن في الآئين، ولا ضعف القرى في الخمول، وتردُّد أثرها بين الرتبتين، وجب أن نستظهر بذكرها، نُبيّن مواضعها، منها:

لُدُّ : هي على ميل من الرملة ، بها جامع يجمع به خلق كثير من أهل القصبة، وما حوله من القرى ، وبها كنيسة عجيبة، على بابها يقتل عيسى الدجَّال .

وكفْر سابا : كبيرة ، بجامع على جادة دمشق .

وعاقر : قرية كبيرة ، بها جامع كبير، لهم رغبة في الخير ، وليس مثل خبزهم على جادّة مكة .

ويُبْنَا : بها جامع نفيس ، معدن التين الدمشقي الفائق .

وعَمَواس : ذكروا أنها كانت القصبة في القديم ، وإنَّما تقدموا إلى السهل والبحر من أجل الآبار ، لأن هذه على حد الجبل .

وكَفَرْ سَلاَّم : من قرى قيسارِيَّة ، كبيرة آهلة ، بها جامعٌ على الجادّة . ولهذه القصبة رباطات على البحر،يقع بها النفير، وتقلع إليها شلنديات الروم وشوانيهم ، معهم أسارى المسلمين للبيع ، كل ثلاثة بمائة دينار . وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ، ويذهبون إليهم في الرسالات ، ويُحْمل إليهم أصناف الأطعمة . وقد ضُج بالنفير لما تراءت مراكبهم . فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط ، وإن كان نهار دخَّنوا . ومن كل رباط إلى القصبة عدة منائر شاهقة ، قد رُتب فيها أقوام فتوقد المنارة التي للرباط ، ثم التي تليها ، ثم الأخرى ، فلا يكون ساعة ، إلا وقد أنفر من بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ، ونودي إلى ذلك الرباط ، وخرج الناس بالسلاح والقوة ،واجتمع أحداث الرساتيق ، ثم يكون الفدا ، فرجل يشتري رجلاً ، وآخر يطرح درهمًا أو خاتمًا حتى يشترى ما معهم .

ورباطات هذه الكورة أي فلسطين- التي يقع بها الفداءُ : غزة ميماس ، عسقلان ، ماحوز ، أزدود ، ماحوز يُبنا ، يافه ، أرسوف(١) .

ويجعل المقدسي "مدين" من الشام فيقول :"ومدين في هذه الخُطَّة ، وثم

(١) انظر : المقدسي ، ص ١٧٤-١٧٩ .

الحجر الذي رفعه موسى عليه السلام حين سقى غنم شعيب . والماء بهـــا غزيـــر ، وأرطالهم ورسومهم شامية . ثم يتحـــدث عن "ويلة" أيلة- فيقول:"وفي ويلة تنازع بين الشاميين والحجازيين والمصريين ، كما في عبَّادان ، وإضافتها إلى الشام أصـوب ، لأن رسومهم وأرطالهم شـــامية . وهـــي فرضة فلسطين ، ومنها يقع جلابهم .

وتبوك : مدينة صغيرة بها مسجد النبي صلى الله عليه وسلم" (١).

يقدم لنا المقدسي معلومات مهمة عن كورة فلسطين ، وقد بناها على المشـاهدة والسماع ، فيتناول الجغرافيـــة الطبيعيـــة والحاصلات ، ويحدثنا عـــن الســـكان ، ويقدم لنا صورة وافية عن نظام الإنذار في الرباطات على ساحل البحر . وكذلـــك عن الكيفية التي يتم بهـــا فـــداء أسـرى المسلمين ويعتبر المقدسي مـــن أهـــم المصادر التي اعتمدها من جاء بعده مـــن الجغرافيين . وهو المصـــدر الأساســـي ، للشام ولاسيما فيما يتعلـــق بفلســـطين والأردن ويتحدث عن إقامته في أريحـــا فيقول في أثناء حديثه عن شؤون إقليـــم الشام :

"هو أي الشام إقليم متوسط الهواء، إلا من الشراة إلى الحُولة ، فإنه بلد الحـــر والنيل والموز والنخيل . وقـــال لي يومًـــا غسَّان الحكيم ، ونحن بأريحا : ترى هـــذا الوادي ، قلت : بلى . هـــو يمـــدُّ . إلى الحجاز ثم يخرج إلى اليمامة ثم إلى عُمـــان وهجر ثم إلى البصرة ، ثم إلى بغـــداد ، ثم يصعد إلى ميسرة الموصل ، إلى الرقـــة . وهو وادي الحر والنخيل ، وأشـــدُّ هـــذا الإقليم بردًا بعلبك وما حولهـــا ، ومـــن أمثالهم : قيل للبرد أين نطلبـــك قـــال: بالبلقاء، فإن لم نجدك ؟ قال:بعلبك بيتي .

وهو أي الشام إقليم مبارك ، بلد الرخص والفواكه والصالحين والسـلمرة فيه من فلسطين إلى طبرية ، ولا نجد فيـــه مجوسيًا ولا صابئًا . مذاهبهم مســـتقيمة ، أهل جماعة وسنة وأهل طبرية ، ونصـــف نابلس ، وقدس ، وأكثر عمَّان شيعة ، ولا ماء فيه لمعتزلي إنما هم في خفية . وببيـــت المقدس خلق من الكرَّاميَّة ، لهم خوانـــق ومجالس، ولا ترى به مالكيًا ، ولا داوديًا، وللأوزاعية مجلس بجامع دمشق .." (٢) .

فقد اهتم المقدسي ، برسم خريطـــة للمذاهب الإسلامية بالشـــام إلى جـــانب

(١) انظر : المقدسي ، ص ١٧٩ .

(٢) انظر : المقدسي ، ص ١٧٩ .

الخريطة الجغرافية والسكانية والاقتصادية . فالشام على عهده "قليل العلماء " ، كثير أهل الذمَّة ، وسكانه أهل جماعة وسنة. ويحدد الأماكن التي ينتشر فيها المذهب الشيعي ، وأن الاعتزال "في خفية" وللكرامية خوانق ومجالس في بيت المقدس، وللأوزاعية مجلس بجامع دمشق ..وليس فيه مالكي ولا داودي .

فهذه معلومات دقيقة ، يقدمها المقدسي عن مذاهب الشام في عصره ، يصعب أن نجدها في مصادر أخرى .

ونعرض بعد ذلك إلى رحالة أديب أندلسي ، زار المشرق ثلاث مرات ، كان إحداها ما بين سنتي ٥٧٨هـ ٥٨١هـ، وهو المعروف بابن جُبير(١) في كتابه المعروف برحلة ابن جبير .

يحدثنا ابن جبير عن مشاهداته في هذه الرحلة فيقول :

"شاهدنا في هذا الوقت ، الذي هو شهر جمادي الأولى سنة ٥٨٠هـ ، من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك ، وهو من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز ، والمانع لسبيل المسلمين على البر ، وبينه وبين القدس مسيرة يومٍ أو أشف قليلا ، وهو سراوة أرض فلسطين . وله نظر ، عظيم الاتساع متصل العمارة . يذكر أنه ينتهي إلى أربعمائة قرية . فنازله هذا السلطان ، وضيق عليه ، وطال حصاره(٢).

ويحدثنا ابن جبير عن العلاقات التجارية بين المسلمين والفرنج هي هذه الفترة العصيبة فيقول:" واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع . واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكّة كذلك . وتجار النصارى أيضًا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض . وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وهي من الأمنة على غاية . وتجار النصارى أيضًا يؤدونها في بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال . أهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب (٣) .

---

(١) محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ، أبو الحسين . ولد في بلنسية سنة ٥٤٠هـ ومات بالإسكندرية سنة ٦١٤هـ رحالة أديب زار المشرق ثلاث مرات إحداها سنة ٥٧٨هـ ٥٨١هـ وهي التي ألف فيها كتابه : "رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف رحلة بـ (رحلة ابن جبير) "انظر: الأعلام ، ج٦ ، ص٢١٤ .

(٢) ابن جبير ، ص ٢٣٤.

(٣) رحلة ابن جبير ، ص ٢٣٥ .

وإن هذا الوضع الذي شاهده ابن جبير ، يثير عجبه ، ثم يجمل الحديث فيقول : " هذه سيرة أهل هذه البلاد (الشامية) في حربهم ، والفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ، ولا تعترض الرعايا ولا التجار . فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلمًا أو حربًا . وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفي الحديث عنه . والله يعلي كلمة الإسلام بمنه "(١).

ويواصل ابن جبير حديثه قائلاً : "استهل هلال شهر جمادى الآخرة ، ليلة الأحد التاسع من شهر شنتبر العجمي (سبتمبر) ونحن بدمشق حرسها الله- على قدم الرحلة إلى عكة ، فتحها الله ، والنماس ركوب البحر مع تجار النصارى، وفي مراكبهم المعدة لسفر الخريف المعروف عندهم بالصليبية وكان انفصالنا منها (أي دمشق) عشيَّ يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور ، وهو الثالث عشر من شهر شتنبر المذكور، وفي قافلة كبرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكة (٢) .

ويواصل حديثه قائلاً :"ورحلنا من تبنين ، دمرها الله ، سحر يوم الاثنين ، وطريقنا كله ضياع متصلة ، وعمائر منتظمة بسكانها كلها مسلمون ، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه . نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولا يعترضونهم في غير ذلك . ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضًا . ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم . وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام ، على هذه السبيل . رساتيقهم كلها للمسلمين ، وهي القرى والضياع . وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من من أهل الرساتيق المسلمين وعمالهم ، لأنهم ضد أحوالهم من الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين ، أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج ، ويأنس بعدله . فإلى الله المشتكى من هذه الحال ، وحسبنا تعزية وتسلية ما جاء في

(١) المصدر نفسه .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٤ .

الكتاب العزيز : " إنْ هي إلا فِتْنَتُكَ تُضل بها من تشـــاء وتهـــدي مـــن تشـــاء " [الأعراف:١٥٥].

وبعدها يحدثنا ابن جبير عن عجبـــه الممزوج بالحزن والألم من هذه الحال الـتي أصبح عليها المسلمون ، يتوقف عند مدينة عكة فيقول :" ذكر مدينة عكة ، دمَّرهـــا الله وأعادها [أي إلى حظـــيرة الإسـلام] وهي قاعدة مدن الإفرنج بالشام ، ومحـط الجواري المنشآت في البحر كـــالأعلام ، مرفأ كل سفينة ، والمشـــبهة في عظمـــها بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفـــاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق انتزعها الإفرنج مـــن أيـدي المســلمين في العشـــر الأول مـــن المئـــة السادسة، فبكـــى لهـــا الإســـلام مـــلء جفونه (١)

ليت شعري ماذا عسى أن يقول ابـن جبير في القرن الخامس عشـــر للـــهجرة وأواخر القرن العشـــرين الميلادي لوزار عكة وحيفا ويافا وعسقلان وطبرية وبيـــت المقدس وغيرها من البلاد التي مازال اليـهود يحتلونها حتى يومنا هذا ، وما آل إليه حـــال المسلمين من التخاذل والتنازع والتمـزُّق فإلى الله المشتكى والمفزع !!!

ويواصل ابن جبير الحديث عن رحلتـــه هذه فيقول :" ثم توجهنا إلى صـــور يـــوم الخميس الثاني عشر لجمادى المذكـــورة ، والموفي عشرين لشِنتبر المذكور على الـبر ثم يتوقف للحديث عن هذه المدينة فيقـول: " ذكر مدينة صور دمَّرها الله تعالى ، مدينة يضرب بها المثل في الحصانة قد أعدَّهـــا الإفرنج مفزعًا لحادثة زمانهم ، وجعلوهـــا مثابة لأمانهم (٢) . ثم يقول ابن جبـــير : "فأعلمنا أحد مشايخ أهـــل صـــور مـــن المسلمين أنها أخذت منهم سنة ثماني عشـــرة وخمس مئة ، وأخذت عكة قبلها بـــاثنتي عشرة سنة ، بعد محاصرة طويلة ، وبعـــد استيلاء المسغبة عليهم(٣) .

وفي القرن الثامن الهجري ، نتوقـــف عند الرحَّالة المغربي الطنجي ابن بَطُّوطة(٤)

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٩ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٠ .

(٣) رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٢ .

(٤) محمد بن عبد الله بن محمد إبراهيم اللواتي الطنجي ، أبو عبد الله ، ابن بطُّوطة ، رحالة مؤرخ . ولد ونشأ في طنجة بالمغرب الأقصى . وخرج منها سنة ٧٢٥هـ . فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمـــن والبحرين وتركستان ، وما وراء النهر وبعض الهند والصين والحجاز وبلاد التتر وأواسط إفريقية إلخ وعاد إلى المغرب . وأملـــى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي بمدينة فاس سنة ٧٥٦هـ . واستغرقت رحلته سبعًا وعشرين سنة . مات بمراكش . وانظر الأعلام ، ج٧ ، ص ١١٤ .

في كتابه المعروف برحلة ابـــن بطوطـــة المسمَّاة "تحفة النُّظَّار في غرائب الأمصار " .. وحدَّد يوم خروجه في رحلتـــه الـــتي استغرقت سبعًا وعشرين سنة قال : كـــان خروجي من طنجة مسقط رأسي ، في يوم الخميس الثاني من شهر رجب عام خمســة وعشرين وسبعمائة .

وسنتوقف في هذا البحث عند رحلته في فلسطين والأردن من بلاد الشام . ففي رحلته من غزة إلى القدس فعَسْقلان يقول: " ثم سرنا حتى وصلنا مدينة غزة ، وهـــي أوّل بلاد الشام مما يلي مصـــر ، متســـقة الأقطار، كثيرة العمارة ، حسنة الأسواق، بها المساجد العديدة ، والأسوار عليها.

وكان بها جامع حسن . والمســـجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها وهـــو أنيق البناء ، محكم الصنعة مـــن الرخـــام الأبيض . وقاضي غزة بدر الدين السلخيتي الخوارني ، ومدرسها علم الدين ابن سالم. وبنو سالم كبراء هذه المدينة ، ومنهم شمس الدين قاضي القدس .

ثم سافرت من غزة إلى مدينة الخليل . صلى الله على نبينا وعليه وسلم تســليمًا . وهي مدينة صغيرة الساحة، كبيرة المقدار، مشرقة الأنوار ، حسنة المنظر ، عجيبـــة المخبر ، في بطن وادٍ ومســـجدها أنيـــق الصنعة ، محكم العمل ، بديع الحســـن ، سامي الارتفاع ، مبني بالصخر المنحـوت. في أحد أركانه صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبرًا . وفي داخل المسجد الغـــار المكرم المقدس . فيه قبر إبراهيم وإســـحاق ويعقوب ، صلوات الله على نبينا وعليهم. ويقابلها قبور ثلاثة هي قبور أزواجـــهم . وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة ، موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمـــل إلى مسلك ضيق ، يفضـــي إلى ســـاحة مفروشة بالرخام،فيها صور القبور الثلاثة. ويقال إنها محاذية لها . وكان هناك مسلك إلى الغار المبارك ، وهو الآن مســـدود . وقد نزلت بهذا الموضع مرات . ومما ذكره أهل العلم دليلاً على صحة كون القبـــور الثلاثة الشريفة هنالك ، ما نقله من كتاب علي بن جعفر الرازي ، الذي سمَّاه المسـفر للقلوب عن صحة قبر إبراهيم وإســـحاق ويعقوب . وأسند فيه إلى أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"لمـــا أسري بي إلى بيت المقدس ، مر بي جـبريل على قبر إبراهيم فقـــال : انـــزل فصـــلّ

ركعتين،فإن هنا قبر إبراهيم، ثم مَرَّ بي على بيت لحم وقال:انزل فصلِّ ركعتين،فإن هنا وُلِدَ أخوك عيسى عليه السلام . ثم أتى بي الصخرة وذكر بقية الحديث (١)

ويواصل ابن بطوطة رحلته فيقول : "وبشرقيّ خرم الخليل قرية لوط عليه السلام. وهي تل مرتفع يشرف على غور الشام. وعلى قبره أبنية حسنة . وهو في بيت منها حسن البناء ، مبيض ولا ستور عليه . وهنالك بحيرة لوط وهي أجاج . يقال : إنها موضع ديار قوم لوط .

وبمقربة من قرية لوط مسجد اليقين ، وهو على تلٍّ مرتفع ، له نور وإشراق ليس لسواه ، ولا يجاوره إلا دار واحدة يسكنها قيمه وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن علي عليها السلام . وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام في أحدهما مكتوب منقوش بخطٍ بديع :"بسم الله الرحمن الرحيم ، له العزة والبقاء،وله ما ذرا وبرا، وعلى خلقه كتب الفناء . وفي رسول الله أسوة حسنة . هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضى الله عنه "(٢)

وفي اللوح الآخر منقوش :صنعه محمد ابن أبي سهل النقاش بمصر ، وتحت ذلك هذه الأبيات (٣) .

ويواصل ابن بطوطة رحلته ، فيقول :" ثم سافرت من هذه المدينة إلى القدس . فزرت في طريقي إليه تربة يونس عليه السلام ، وعليها أبنية كبيرة ومسجد .

وزرت أيضًا بيت لحم ، موضع ميلاد عيسى عليه السلام. وبه أثر جذع النخلة. وعليه عمارة كثيرة . والنصارى يعظمونه أشد التعظيم . ويضيفون من نزل به .

ثم وصلنا إلى بيت المقدس ، شرفه الله، ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل ، ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعرجه إلى السماء . والبلدة الكبيرة ، منيفة بالصخر المنحوت .

وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن الإسلام خيرًا، لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها . ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفًا أن يقصدها الروم فيمتنعوا بها والمسجد المقدس هو من المساجد العجيبة الرائعة ، الفائقة الحسن . يقال إنه ليس

(١) انظر : رحلة ابن بطوطة ، ص ٧٥-٧٧ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ، ص ٧٧ .

(٣) انظر : رحلة ابن بطوطة ، ص ٧٨ .

على وجه الأرض مسجد أكبر منه والمسجد كله فضاء وغير مسقف ، إلا الأقصى فهو مسقف ، في النهاية من إحكام الفعل وإتقان الصنعة ، مموه بالذهب والأصبغة الرائقة ويصف ابن بطوطة المسجد والقبة الصخرية ويتحدث عن المشاهد المباركة بالقدس الشريف ..(١).

ويذكر من بعض فضلاء القدس ، قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزي ، وهو من أهل غزة وكبرائها . ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسي . ومنهم المحدث المفتي شهاب الدين الطبري . ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله بن مثبت الغرناطي ، نزل القدس . ومنهم الشيخ الزاهد أبو علي حسن المعروف بالمحجوب ، من كبار الصالحين . ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغي . ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرز الروم.وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعي، صحبته ولبستُ من خرقة التصوُّف(٢) .

ويواصل ابن بطوطة رحلته بفلسطين، خارجًا من القدس متجهًا لزيارة ثغر عَسْقلان ، فيقول :

ثم سافرت من القدس برسم زيارة ثغر عسقلان . وهو خراب قد عاد رسومًا طامسة وأطلالاً دارسة . وقل بلد من المحاسن ما جمعته عسقلان ، إتقانًا وحسن وضع وأصالة مكان ، وجمعًا بين مرافق البر والبحر . وبها المشهد حيث كان رأس الحسين بن علي عليه السلام ، قبل أن ينقل إلى القاهرة ، وهو مسجد عظيم سامي الغلو فيه جب للماء وفي قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر، لم يبق منه إلا حيطانه ، وفيه أساطين رخام لا مثيل لها في الحسن ، وهي ما بين قائم وحصيد وبظاهر عسقلان وادي النمل ويقال إنه المذكور في الكتاب العزيز . وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والأولياء ما لا يحصر لكثرته، أوقفنا عليهم المزار المذكور ، وله جراية يجريها له ملك مصر مع ما يصل إليه من صدقات الزوار(٣).

وسنتوقف في هذا البحث عند

(١) انظر : رحلة ابن بطوطة ، ص ٧٩ .

(٢) انظر : رحلة ابن بطوطة ، ص ٧٩-٨٠ .

(٣) انظر : رحلة ابن بطوطة ، ص ٨٠ .

الأماكن التي يمر بها من جندي فلسطين والأردن ، في رحلته من عسقلان إلى حلب . يقول ابن بطوطة :

" ثم سافرت منها - أى من عسقلان - إلى مدينة الرملة ، وهي فلسطين ، مدينة كبيرة ، كثيرة الخيرات ، حسنة الأسواق ، وبها الجامع الأبيض . ويقال إن في قبلته ثلاثمائة من الأنبياء مدفونين عليهم السلام، وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسي.

ثم خرجت منها إلى مدينة نابلس ، وهي مدينة عظيمة ، كثيرة الأشجار ، مطردة الأنهار ، من أكثر بلاد الشام زيتونًا، ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق ... وبها تصنع حلواء الخروب وتجلب إلى دمشق وغرها ... وبها البطيخ المنسوب إليها ، وهو طيب عجيب . والمسجد الجامع في نهاية من الإتقان والحسن. وفى وسطه بركة ماء عذب(١).

ثم سافرت منها - أي من نابلس- إلى مدينة عجلون . وهي مدينة حسنة لها أسواق كبيرة وقلعة خطيرة ، ويشقها نهر ماؤه عذب(٢) .

وبعد ذلك غادر ابن بطوطة مدينة عجلون ، من بلاد الأردن ، قاصدًا مدينة اللاذقية ، فيقول :" ثم سافرت منها بقصد اللاذقية ، فمررت بالغور ، وهو وادٍ بين تلال به قبر أبي عُبيدة بن الجراح أمين هذه الأرض ، رضي الله عنه . زرناه ، وعليه زاوية فيه الطعام لأبناء السبيل ، وبتنا هنالك ليلة . ثم وصلنا إلى القُصَير ، وبه قبر مُعاذ بن جبل رضي الله عنه ، وتبركت أيضًا بزيارته .

ثم سافرت على الساحل ، فوصلت إلى مدينة عكة ، وهي خراب . وكانت عكة قاعدة بلاد الإفرنج بالشام ، ومرسى سفنهم . وتشبه قسطنطينية العظمى . وبشرقيّها عين ماء تعرف بعين البقر ... وكان عليها مسجد بقي منه محرابه ؛ وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام .

ثم سافرت منها إلى مدينة صور وهي خراب . وبخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها أرفاض . ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء ، فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل رجله ثم غسل وجهه .

---

(١) انظر : رحلة ابن بطوطة ، ص ٨١ .

(٢) المصدر نفسه .

ومدينة صور هي التي يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة ، لأن البحر محيط بهـا من ثلاث جهات . ولها بابان ، أحدهمـا للبر والثاني للبحر وبناؤها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأنًا منـه ، لأن البحر محيط بها من ثلاث جهاتها . وعلـى الجهة الرابعة سور ، تدخل السفن تحـت السور وترسو هنالك . وكان فيما تقـدم بين البرجين سلسلة حديد معترضـة ، لا سبيل إلى الداخل هنالك ، ولا إلى الخارج إلا بعد حطها . وكان عليـها الحـراس والأمناء ، فلا يدخل داخـل ولا يخـرج خارج إلا على علم منهم ..(١).

ثم سافرت منها إلى مدينة صيـدا وبخروجه من صور يكون قد غادر بـلاد الأردن . ويحدثنا ابن بطوطة عن الطريـق الذي سلكه من دمشق إلى المدينة المنـورة حاجًّا فيقول :" ولما استهلّ شـوال مـن السنة المذكورة ، خرج الركب الحجازي إلى خارج دمشق ، ونزلوا القرية المعروفـة بالكُسْوة . فأخذتُ في الحركة معـهم . وكان أمير الركب سيف الدين الجوبـان. (قتل فيما بعد ودفن بالبقيع سنة ٧٢٨هـ)

من كبار الأمراء ، وقاضيه شرف الديـن الأذرعي الحوراني ، وحجَّ في تلك السـنة مدرس المالكية صدر الدينَ العمـاري . وكان سفري مع طائفة من العرب تدعـى العجارمة ، أميرهم محمد بن رافع ، كبـير القدر في الأمراء .

وارتحلنا من الكُسوة إلى قرية تعـرف بالصنمين عظيمة . ثم ارتحلنا منها إلى بلدة زرعة وهي صغيرة من بلاد حوران ، نزلنا بالقرب منها .

ثم ارتحلنا إلى مدينة بُصرى ، وهـي صغيرة . ومن عادة الركب أن يقيم بهـا أربعًا ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضـاء مآربه ، وإلى بصرى وصـل رسـول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعث ، في تجارة خديجة رضي الله عنها . وبها مبرك ناقته ، قد بنى عليه مسجد عظيم . ويجتمع أهـل حوران لهذه المدينة ، ويتزود الحاج منها . ثم يرحلون إلى بركة زيزة(٢) ، ويقيمـون عليها يومًا. ثم يرحلون إلى اللُّجون ، وبهـا الماء الجاري(٣).

إن ذكر " اللُّجُّون " في مسار الحـاج الذي يخرج من دمشق ويصل إلى "زيزة"

(١) انظر : رحلة ابن بطوطة ، ص ٨١ ٨٢ .

(٢) وتقع إلى جنوب عمان تسمى اليوم "زيزياء .

(٣) انظر : رحلة ابن بطوطة ، ص ١٢٩-١٣١ .

وينطلق منها إلى حصن الكـــرك ، يبـــدو غريبًا ، ولا يتفق مع واقع مسار الحـــاج ، إذا قصد " اللَّجُّون " المدينة التي تقع بـــين طبرية والرّملة وإن المصادر التي بـــين أيدينا لا تذكر لنا موضعًا بـــن "زيـــزة" والكرك ، يحمل اسم اللَّجـــون ومـــن المرجح أن يكن قد حدث تصحيـــف أو خطأ في نقل "النص" ، ولا يمكن أن يكون خطأ اقترفه ابن بطوطة ، لأنه يصف طريق الحج الذي سلكه هو نفسه . وقد يكـــون هنالك موقع آخر يحمل اسم اللجـــون لم تذكره المصادر !!!

ويواصل ابن بطوطة وصف مســـار الحاج فيقول :" ثم يرحلون إلى حصـــن الكرك ، وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها . ويسمى بحصـــن الغـــراب . والوادي يطيف به من جميع جهاته ، ولـــه باب واحد قد نحت المدخل إليه في الحجـــر الصلد ، ومدخل دهليزه كذلك . وبهـــذا الحصن يتحصن الملوك ، وإليه يلجأون في النوائب وأقام الركب بخارج الكـــرك أربعة أيام ، بموضع يقـــال لـــه الثنيـــة ، وتجهزوا لدخول البرية .

ثم ارتحلنا إلى مَعان وهو آخر بـــلاد الشام . ويذكر ابن بطوطة على طريـــق الحج " عقبة أيلة"(١) على ساحل بحـــر القلزم مما يلي الشام .

ولعلَّ اختيارنا لجغرافي شآمي مشهور من أبناء بيت المقدس ، ليتحـــدث عـــن جغرافية بلاد فلسطين والأردن ، يشير إلى أهميته وإلىَ كونه مصدراً علميًّا من الدرجة الأولى . وعسى أيضًا أن يكون اختيارنـــا لرحَّالة أندلسي ، عرف باسم "ابن جُبَيْر"، زار بلاد الشام في ذروة الصراع الـــذي كان يخوضه المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله ضد الصليبيـــين في فلسطين والأردن وسواحل الشام ، يزودنا بما سجَّله هذا الرحَّالة مـــن مشـــاهدات جغرافية ، وانطباعات شخصية ، تـــترجم أحاسيس مسلمي الأندلس الذين كـــانوا هم أيضًا يخوضون صراعًا بقيادة الموحدين ضد الفرنج وحملاتهم الصليبية . وتحدثنـــا المصادر التي بين أيدينا ، أن كثـــيرًا مـــن الحملات الصليبية المتوجهة إلى المشـــرق كانت تنـــزل في الأندلس، وتشـــارك في المعارك ضد المســـلمين قبـــل أن تعـــاود مسيرتها نحو سواحل الشام ومصر

---

(١) انظر : رحلة ابن بطوطة ، ص ١٣١ .

وأخيرًا توقفنا عند الرحَّالة المغربي المعروف باسم ابن بطوطة ، الذي زار بلاد الشام وتوقف كثيرًا في مدن فلسطين والأردن . ووصف زيارته لبيت المقدس والحرم الإبراهيمي ، ومقامات الأنبياء وأضرحة الصحابة رضوان الله عليهم جميعًا ، وذلك بعد اندحار الصليبيين وخروجهم نهائيًا من مصر والشام ببضعة عقود والله الأمر من قبل ومن بعد .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبد الكريم خليفة

عضو المجمع

من الأردن

ثبت المصادر والمراجع

١ ابن بطوطة محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن إبراهيم اللواتي الطَّنْجيْ أبو عبد الله (ت : ٧٧٩هـ) ، رحلة ابن بطوطة المسمَّاة : تحفة النظَّار في غرائب الأمصار ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م .

٢ ابن جُبَيْر أبو الحسن محمد بن أحمد بن جُبَيْر (ت : ٦١٤هـ) ، رحلة ابن جُبير المسمَّاة: رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك،بيروت،١٩٨١م.

٣ ابن خلّكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلّكان ، (ت: ٦٨١هـ) ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، بيروت ، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .

٤ البشَّاري شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر البنَّاء ، الشامي المقدسي المعروف بالبشاري (ت:٣٧٥هـ) ، كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، الطبعة الثانية ، ليدن ، سنة ١٩٠٦م .

٥ الزركلي خير الدين ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، ج ١-١١ ، الطبعة الثالثة .

٦ - سركيس يوسف إلياس سركيس الدمشقي ، معجم المطبوعات العربية المعرَّبة ، ج ١-٢، مصر ، ١٣٤٦هـ ١٩٢٨م .

٧ الطبري أبو جعفر بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك ، ج١-١٠، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثالثة ، القاهرة.